فجعل فهم السياق هو الطريق الوحيد لفهم دلالات هذه الألفاظ، وكان تعريفه للسياق ـ على ما رأينا ـ هو «ما يتقدم الحرف ويتأخَّر بعده، مما يوضِّح تأويله».

وقد كان اختلاف علماء العربية حول مدى جواز أن يكون للمعنى الواحد عدة علامات لغوية ومدى منطقية هذا، مثاراً لقضية نظرية ظهرت في مقدمات هؤلاء العلماء لمؤلفاتهم في دلالات الألفاظ، بل إنه كان أحياناً هو الباعث على تأليف مثل هذه الكتب.

وقد نجد في مقدمات هذه الكتب أسئلة من قبيل: هل يجوز أن يقع في كلام العرب اللفظ الواحد على عدة معان؟ وهل يضع الواضع لفظين للمعنى الواحد... وهكذا، وهذه الأسئلة حقيقتها عناوين أو أعلام على قضايا فلسفية (عقلية) شكلت عدداً كبيراً من مباحث علم اللغة العربية وفقهها، فنشأت موضوعات في كتب علم اللغة وصنفت كتب من قبيل: المترادف، الفروق، المشترك، الأضداد، وغير ذلك، بحيث كان كل من هذه الأنواع امتداداً لفكرة نظرية، هي وجهة نظر المؤلف في القضية اللغوية العقلية المختلف فيها، وصنف لأجل إثباتها ـ أو نفي غيرها ـ ما صنَّف، وهو ما يدفعنا إلى اعتبار هذه التصانيف والمؤلفات نوعاً من «البحوث التطبيقية» التي تتبع المؤلفون فيها الظواهر اللغوية، بغية إثبات وجهات نظر معينة من خلال الواقع اللغوي الحي للناطقين باللغة العربية في عصور الاحتجاج[1].

وبإثارة قضية من هذا النوع بدأ ابن الأنباري كتابه «الأضداد» قائلاً[2]: كلام العرب يصحح بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه، إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنها يتقدمها، ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد.

فمن ذلك قول الشاعر:

كل شيء ما خلا الموت جَلَل والفتى يسعى ويلهيه الأمل

فدَلَّ ما تقدم قبل جلل وتأخَّر بعده على أن معناه: كل شيء ما خلا الموت يسير، ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن «الجلل» هنا معناه «عظيم».

---

(١) للاستزادة حول هذه القضايا والمؤلفات فيها انظر: المزهر للسيوطي، ج١، ط٣، دار التراث ـ القاهرة، (د.ت) ص٣٥٥، ٣٦٩ حتى ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٢.